دور التضامن العالمي في المقاومة اللاعنفية الفلسطينية

عن البشرة والسلاح وإثارة المتاعب

. پول لارودي * .

. ترجمة: سماح إدريس .

في ٢٠٠٦/٦/٦، أيْ بعد يوم من منعي من دخول إسرائيل واعتقالي، أوردتْ صحيفةُ **جيروزالم پوست** أنّ موظفًا أمنياً إسرائيلياً قال «هذا الشخص خَطِرٌ على الدولة. إنّه أحدُ قادة حركة التضامن العالمية (ISM)، وكان في السابق ضالعًا في نشاطٍ معادٍ لإسرائيل. ولذا لن يُسْمح له بالبقاء في البلاد.»

عليّ أن أقولَ إنّ هذا شرفٌ لا أدّعيه!

شَرَحتُ للمحقّق أنّ «حركة التضامن العالمية» لا قادةَ لها، ولكنّه سيكون من الدقيقِ القَوْلُ إنّني متطوّعٌ ناشطٌ جداً. أما بخصوص كوني خَطِرًا على إسرائيل، فإنّني أَعْلم أنّ ما سأقوله سيُساءُ عرضُه وسيُورَدُ بشكلٍ جزئيّ، ولكنّني سأقولُه في أيِّ حال. إنّني آملُ مخْلِصًا أن تكون حركتُنا تهديدًا لوجودِ إسرائيل، ولكنْ دون أن تكون تهديدًا لأمنِ إسرائيل.

الواضح أنّ قولي هذا يحتاج إلى تفسير. غير أنّي آمَلُ أن تَصْبروا حتى أتحدَّثَ قليلاً في البداية عن «حركة التضامن العالمية» أولاً أعتقد أنّ أكثرَكم يَعْرف الكثيرَ عنّا، لذا سأَخْتصرُ الحديثَ فأقول إنّ حركتَنا تشكّلتْ قبل خمسة أعوام تقريبًا، في صيف ٢٠٠١. الهدف المركزي للحركة هو وضعُ متطوّعين عالميين تحت تصرّف مجموعاتٍ مقاومةٍ فلسطينيةٍ لاعنفية، بهدف خفض الوحشية التي تُقابَل بها أفعالُ هذه المجموعات من طرف القوات الإسرائيلية. وما يَسْمح لنا بذلك هو الوضعُ المتميِّزُ الذي تقدِّمه لنا جوازاتُ سفرنا ولونُ بشرتنا فما دام الجنودُ ورجالُ الشرطة الإسرائيليون يروْن أنّنا شبيهون بهم ومختلفون عن الفلسطينيين، فإنّهم سيتردّدون في ممارسة وحشيّتهم المعهودة، وسيتردّدون أيضًا في إثارة أحداثٍ عالميةٍ قد تَنْجم عن الاستخدام المنفلت السَّراح للتكتيكات العنيفة التي ما كانوا سيتردّدون في استخدامها ضدّ زملائنا الفلسطينيين

في البداية أَصَبْنا نجاحاتٍ لافتةً، على نحوِ ما حصل حين فاجَأْنا معسكرًا إسرائيليّاً في وادي الأردن في آب (أغسطس) ٢٠٠١ وسيطرْنا على جزءٍ منه. وفي كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠١ فَكَّكْنا وأزلْنا حاجزًا يَفْصل بين رام الله وبيرزيت. وفي نيسان (أبريل) ٢٠٠٢ دخلْنا مبنى «المقاطعة،» وكنيسةَ المهد، وثلاثةَ مخيّماتٍ للاجئين في بيت لحم. وثمة برهانٌ على أنّ وجودَنا هناك كان سببًا مهمّاً لقرار إسرائيل عدمَ دخول هذه الأماكن. غير أنّه كانت ثمة أمثلةٌ مضادةٌ، كما حصل حين أطلق جنديٌّ إسرائيليٌّ النارَ عليّ وعلى ستةٍ من زملائي في بيت جالا في ٢٠٠٢/١/١ ولكنّ حتى ذلك الحادث كان على الأغلب أقلّ عنفًا ممّا لو كنّا فلسطينيين.

بيْدَ أنّ وضعَنا المميَّز، لسوء الحظّ، بدأ يعتريه الوَهَن. ففي تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٢ أطلق الكابتن الإسرائيلي أرييل زئيفي النارَ على زميلتي سوزان باركْلي من مسافة ثلاثةِ أمتار، فلَفَحَتْ شعرَها. وحَدَثَتْ أمورٌ أخرى من هذا القبيل ففي ٢٠٠٣/٣/١٥ كنتُ أتحدّث في تل أبيب مناقشًا التراجُعَ الظاهرَ في أثرِ ذلك الامتياز، ومقترحًا احتمالَ الحاجة إلى أن يَضْطلعَ بأعمالِ التضامن مع الشعب الفلسطيني أشخاصٌ يَحُوزون أوضاعًا **أكثرَ** امتيازًا منّا مثلُ اليهود الإسرائيليين. في اليوم التالي قُتلتْ زميلتي رايتْشِلْ كوري بواسطةِ جنديّ إسرائيلي يَسْتخدم جرّافةً في رفح. وبعد أقلّ من ثلاثة أسابيع، أَطْلق جنديٌّ آخرُ في جنين النارَ على وجه برايان ايْڤري، الذي كنتُ أنا وابني قد أدّينا معه خدماتِنا [التضامنية مع الفلسطينيين] في نابلس. وفي الأسبوع التالي، أطلقَ جنديٌّ ثالثٌ في رفح النارَ على توم هُرْندال في رأسه، فمات بعد تسعة شهور

* باحث وناشط أميركي حائز دكتوراه في اللسانيات متخصّص في «دوْزنة» آلات البيانو، ومخترعٌ لمفتاح في هذا المجال أحد مؤسِّسي «حركة التضامن العالمية» ISM مع الشعب الفلسطيني أصيب بجروح نتيجةً لاطلاق القوات الإسرائيلية النار عليه في نيسان (أبريل) ٢٠٠٢ وهذا هو نصّ المحاضرة التي ألقاها في نادي الساحة (بيروت) في ٢٠٠٥/٧/٦ بدعوة من مجلة الآداب والنادي المذكور

بفضل رايْتشل كوري وبرايان إيڤري وتوم هرندال تضاعفتْ طلباتُ الانتساب إلى حركتنا أربع مرّات.

صحيحٌ أنّ الكلفة كانت عاليةً لـ «حركة التضامن العالمية،» إلاّ أنّها كانت عاليةً لإسرائيل أيضًا فعلى الرغم من أنّ تلك الأحداث تزامنتْ مع الغزو الأميركي للعراق، وبرغم الإعلام الأميركي والبريطاني غير المتعاطف مع الفلسطينيين، فإنّ الناسَ الذين لم يُعيروا القضيةَ الفلسطينيةَ كبيرَ اهتمام من قبلُ بدأوا يَعُون هذه القضيةَ بفضل رايْتشلْ وبْرايانْ وتوم. المدهش أنّ طلباتِ الانتساب إلى حركتنا تضاعفتْ أربعَ مرات، وبدأ المتطوّعون الإسرائيليون أنفسُهم يشاركوننا بأعدادٍ كبيرة. أحدُ هؤلاء، واسمه غِلْ نأماتي، اشمأزّ من تجربته الشخصية في الجيش الإسرائيلي إلى درجة أنّه شاركَ في محاولةِ تدميرِ جزءٍ من جدار الفصل العنصريّ بعد أسابيعَ فقط من إنهائه الخدمةَ العسكرية، وتحطّمتْ رجلُه إثر إطلاق الإسرائيليين النارَ عليه في حادثةٍ تمّت تغطيتُها بشكلٍ واسعٍ في الصحافة الإسرائيلية

لقد شارك آلافٌ من المتطوّعين في «حركة التضامن العالمية» خلال الأعوام الخمسة الأخيرة، مع أنّ الحركة لم تضمّ في أيّة لحظةٍ أكثرَ من بضع مئات. وينتمي المتطوّعون إلى بلدانٍ مختلفةٍ عديدة، جُلُّهم من أوروبا والولايات المتحدة، وتتراوح أعمارُهم بين ١٨ و٨٩ سنة. واليومَ، يَنْدر أن نجدَ أكثرَ من ١٠٠ متطوِّع عندنا في لحظةٍ ما، غير أنّ هناك المزيدَ من المجموعات التي تؤدّي عملاً مشابهًا لعملنا: مثل «خدمة المرأة العالمية للسلام» (IWPS)، و«الفِرَق المسيحية الصانعة للسلام» (CPT)، و«مشروع تَلّ رُمَيْدة،» و«البرنامج المسكوني الملازم،» و«فوضويون ضدّ الجدار.» الجدير ذِكْرُه أنّ حوالى خُمْس «حركة التضامن العالمية» يهودٌ.

إنّ عملَنا اليوم هو، إلى درجةٍ كبيرة، استمرارٌ لما فعلناه بالأمس ويَشْمل عملُنا الدفاعَ عن القرى المهدَّدة بالتدمير التامّ، مثل يانون، وخربة تانا، والعقبة كما أنّنا نشارك في جَنْي الزيتون مع المزارعين الفلسطينيين، ولاسيّما أولئك الذين يهدِّدهم المستوطنون ويمنعهم الجيشُ الإسرائيلي من ذلك الجني ثم إنّنا نَلْزم البيوتَ والمباني الفلسطينية التي أُمِرَ بهدمها، ونرافق الأطفالَ الفلسطينيين الخائفين إلى مدارسهم. وسأكون سعيدًا بالاستفاضة في الحديث عن هذه النشاطات في حالِ وجودِ الوقت والرغبة لديكم.

إنّ إسرائيل تَعْتبرنا مثيرين للمتاعب، وإنّنا لكذلك بالتأكيد! غير أنّها تَشْعر، كما يبدو، بأنّها لا تَمْلك دليلاً كافيًا لمنعنا من العمل كمجموعة. فلكي تفعلَ ذلك فإنّها تحتاج إلى أن تُظْهر أنّ مجموعتنا خطرٌ على أمنها. وستكون سعيدة جداً إن استطاعت أن تبيِّن أنّنا شاركْنا في ما تسمِّيه «إرهابًا،» أيْ مقاومةً مسلّحةً، أو سَهَّلْنا ذلك وفي إحدى المناسبات داهم الإسرائيليون مكاتبَنا في بيت ساحور، فصادروا ملفّاتِنا وأجهزةَ الكومبيوتر، واستجوبوا العاملين فيها، لكنّهم لم يَعْثروا على ما يستحقّ المتابعة.

غير أنّهم يواصلون ملاحقتَنا، بالطبع. ويمنعوننا من دخول البلاد، كما في حالتي،[1] ويُوقِفوننا، ويرحِّلون بعضَنا والمستهدَفون الرئيسيون لمثل هذه الملاحقات هم الأشخاصُ الذين تَعْتقد إسرائيلُ أنّهم الأنشط. أما تبريراتُها لذلك فهي، في العادة، ارتكابُ الناشطين مخالفاتٍ بسيطةً من قَبيل دخولِهم إلى منطقةٍ عسكريةٍ مغلقة، أو المشاركةِ في تظاهرةٍ غيرِ مرخّصة، أو الكذبِ على ضابطِ أمن، أو الوقوفِ في طريق تنفيذِ القوات الإسرائيلية للأوامر المعطاةِ إليها. هذه الاتهامات البسيطة غالبًا ما توصَف بـ «التهديدات الأمنية» في نظام العدالة الإسرائيلية المزيّفة، وتستند في العادة إلى براهينَ سرّيةٍ لا يُسمح لنا ولا لمحامينا بالاطّلاع عليها. وهناك أحيانًا حالاتٌ من العنف الجدّي ضدَّنا، لكنْ يبدو أنّ الإسرائيليين يريدون تجنُّبَ خلقِ شهداء غربيين مثل رايْتشِل كوري

إجمالاً نَحْتفظ بعلاقاتٍ جيّدة مع كلّ المجموعات الفلسطينية، ونَعْتبر أنّ

١ - مُنِعَ لارودي من دخول الكيان الصهيوني في حزيران (يونيو) ٢٠٠٦ (الآداب)

الفلسطينيين هم الذين يَقُودوننا. لكنّنا لا نَرْبط أنفسَنا بأيّة مجموعةٍ محدَّدة، بل نحاول أن نتعاونَ مع المجموعات كلِّها بطريقةٍ لا تعرِّضنا ولا تعرِّضهم لأيّ أذًى أو مساومة. وفي هذا السياق تعني عبارةُ «الفلسطينيون هم الذين يَقُودوننا» أنّنا نشكِّل لجانًا غالبيّتُها من الفلسطينيين بهدف اتخاذِ قراراتٍ بأنواع النشاطات التي يُمْكن أن نقومَ بها والقواعدِ التي علينا أن نلتزمَ بها أثناء إقامتنا في فلسطين. فالحال أنّنا، نحن الغربيين، حمقى في العادة إزاءَ ثقافةِ المجموعة التي نتضامن معها، وإزاء تاريخِها وسياستِها ودينِها. وقد نعرِّض أنفسَنا ومضيفينا للخطر إنْ لم نَعِ حدودَنا ولم نتنبّهْ إلى اتّباع القيادات المحلية واحترام العادات المحليَة. إنّ تدريب المتطوِّعين و«غَربلتَهم،» إذن، أمرانِ ضروريانِ لنجاح عملنا

❖ ❖ ❖

أودُّ الآن أن أقول بضعَ كلمات عن حركات التضامن بشكلٍ عامّ.

إنّ أحد المصادر الأساسية لمعاناة البشر، وأساسَ حركاتِ التضامن، هو صِبْغُ القتامين أو السحامين (melanin). فكثرةُ القتامين تَجْعل بعضَ المجموعات عُرْضةً للاضطهاد، في حين أنّ النقصَ فيه يَجْعل آخرين من القامعين ما هو القتامين؟ إنّه الصِّبْغ في جِلْد البشر، الذي يجعله أَدْكَنَ أو أفتَحَ. هناك بالطبع عواملُ أخرى، بل وأمثلةٌ مضادّةٌ أحيانًا، لكنّ الرابطَ بين اللون والقمع لا يُمْكن إنكارُه.

حسنًا، قد لا يكون صِبْغُ القتامين هو المشكلةَ في ذاته، بل تصرُّفاتُ الناس حيالَ اللون الذي يسبِّبه ذلك الصِّبْغُ. بكلامٍ أعمّ، المشكلةُ هي في مدى إدراكنا لشَبَهِ الآخرين بنا أو اختلافِهم عنّا. فسواءٌ تحدَّثْنا عن الأعراق أو الأمم أو القبائل أو العائلات أو حتى الفِرَق الرياضية، فإنّ تصرّفاتنا إزاء الآخرين تتشكّل بفضل إدراكنا لهويتـ «ـهم» ولكيفيةِ اختلافهم «عنّا.» المشكلة، في الحقيقة، هي في الفارق بين الضميريْن المنفصليْن: «هُمْ» و«نحن »

من سوء الحظ أنّنا، نحن البشرَ، غالبًا ما نَعْتبر أنّ الآخرين لا يتمتّعون بكلِّ الخصال التي نتمتّع بها، بل قد نعتبر أنّهم يَمْلكون خصالاً غيرَ بشرية أو لابشرية! ولكيْ نسيءَ معاملةَ الآخرين ونستغلَّهم ونطردَهم ونقتلَهم، فإنّنا عادةً نجد من الضروريّ أن نَعْتبرهم دُونَنا وأن نعتبرَهم إمّا غيرَ مهمّين أو خَطِرين أو الأمريْن معًا، ومن ثم فَهُمْ غيرُ جديرين بالاعتبارِ الذي نَمْنحه لأنفسنا

إنّ هذه التصرّفات التفوُّقية والدونية ـ النابعةَ من التمييز بينـ «نا» وبينـ «ـهم» ـ هي أيضًا ما يَجْعل التضامنَ أداةً مفيدةً في الحركات الاجتماعية. وفي سياقنا هذا، يُمْكن تعريفُ التضامن بأنه مشاركةُ الأفراد من خارجِ مجموعةٍ ما في خدمةِ قضيةِ هذه المجموعة. وهذا مثلاً ما فعله المركيز لافاييت بمشاركته في الثورة الأميركية، وما فعله اللورد بايْرون بمشاركته في النضال اليوناني من أجل الاستقلال، وما فعله الفوضويون الأوروبيون بمشاركتهم في الحرب الأهلية الإسبانية.

تلك كانت أمثلةً على التضامن العالمي مع الكفاح **المسلّح** وأحدُ تأثيرات مشاركة الأجانب في كفاح شعبٍ آخر هو أن يَدْفعوا بنظرائهم المواطنين إلى رؤية ذلك الكفاح بعيونهم هُمْ، الأمرُ الذي غالبًا ما يؤدِّي إلى تعاطفٍ أكبر ودعمٍ أكبر من قِبل أولئك المواطنين الأجانب للكفاح المذكور. هذه هي إحدى فوائد حركات التضامن، ويعبِّر عنها بشكلٍ مميَّزٍ فيلمٌ ممتازٌ للمخرجة ليلى سنسور، وهي صديقةٌ عزيزة فيلمُ ليلى، وعنوانُه «دجيريمي هارْدي في مواجهة الجيش الإسرائيلي» يصوِّر مشاركةَ أحدِ المشاهير البريطانيين مع «حركة التضامن العالمية» في فلسطين وتجربتُه وتعليقاتُه تَسْمح للمشاهدين البريطانيين والمشاهدين الغربيين الآخرين بالمشاركة غير المباشرة في هذه الحركة، وتُشْرع نافذةً أمام أمثالِ هؤلاء المشاهدين لرؤية الحكاية الفلسطينية (هذا، وقد عَزَّزَ من قوة الفيلم المذكور أنّ دجيرمي اتّفَقَ أنْ جاء إلى فلسطين أثناءَ أعنفِ فترةٍ من «عملية الدرع الواقية،» وهي الاعتداءاتُ ضدّ المدن والقرى الفلسطينية عامَ ٢٠٠٢).

يساعد التضامنُ العالمي على تضييق الهوّة بين «نا» وبين «هم» ويغذّي الإحساس بأنّ سعادتنا جميعاً مترابطة.

إحدى الفوائد الهامة الأخرى للتضامن العالمي هي أنّه يساعد في إضعاف الخلافات التي تفرّق مجموعاتٍ من الناس بعضَها عن بعض، ويعزّز شعورًا أوسعَ بالترابط العابر للحدود السياسية والعرقية والثقافية والدينية. بكلام آخر، يساعد التضامنُ العالميُّ على تضييقِ الهوّةِ بين «نا» وبين «هم،» ويغذّي الإحساسَ بأنّ سعادتِنا جميعًا مترابطةٌ ومتعامدة.

كما أنّ التضامن العالمي يقدّم امتيازاتٍ استراتيجيةً للحركات اللاعنفية. فالردُّ البريطاني العنيف على حركةِ مقاومة غاندي اللاعنفية تَقَلَّصَ كثيرًا حين كان البريطانيون والأوروبيون الآخرون المتعاطفون مع تلك المقاومة حاضرين في الهند. أما البيضُ في حركاتِ الحقوق المدنية الجنوبأفريقية والأميركية فغالبًا ما عُوملوا بوحشية، ولكنّها كانت وحشيةً أقلّ من تلك التي تعرَّض لها زملاؤهم الذين اتَّفَقَ أَنْ كان جلدُهم بقتامين أقلّ. إذن، يُمْكن استخدامُ المتطوّعين المتضامنين أداةً لتعزيزِ الأعمال اللاعنفية التي كانت ستُصبح، من دون تلك الأداة، باهظةً جدّاً.

أحدُ الانتقادات الموجّهة إلى حركات التضامن والحركات اللاعنفية معًا هو: «ما الفائدةُ منها؟ هل تحقّق أيَّ شيء فعلاً؟ أليس الأفضلُ أن يُبْذَلَ الجهدُ في نشاطاتٍ أخرى؟» وقال بعض الفلسطينيين لنا: «لا فائدة لكم هنا. لِمَ لا تَرْجِعونَ إلى بلادكم وتُقْنِعونَ شعبَكم وحكومتَكم بوقفِ دعمِ إسرائيل؟»

إنّ جزءًا من الردّ على هذا النقد هو الاعترافُ بعدم ارتياحنا إلى استغلالنا لامتيازنا [اللَّوْني]، وإن استراتيجيّاً، لأنه أمرٌ نَرْفضه. غيرَ أنّ أحدَ الأهدافِ الأساسيةِ لعملنا في فلسطين هو، في واقع الأمر، تغييرُ الإدراكات والسياسات في بلادنا نفسِها. فغالبًا ما نَعْجز عن الوصول إلى جماهيرنا من دون أن نكون قد مَرَرْنا بتجربة المشاركة المباشرة في النضال ومشاهدتِها شخصيّاً. إنّ عملنا في فلسطين لا يحلّ محلَّ العمل الذي نقوم به في بلادنا طبعًا، بل يقوّيه ويعزّزه.

وأخيرًا، فالحقيقة هي أنّ جهودَنا تُثْمر فعلاً نتائجَ فوريةً وبعيدةَ المدى أيضًا. ولقد سَبَقَ أن ذَكَرْتُ بعضَ النجاحات، وسأكون سعيدًا في التوسُّع في الكلام عليها إذا سَنَح وقتُكم وتوفّرتْ رغبتُكم.

أحدُ الانتقاداتُ الأخرى هو أنّنا لاعنفيون حصرًا، وأنّ اللاعنفَ يُضْعِفُ النضالَ ويَخْدم القامعين. لكنّي قبل أن أناقش هذا الانتقاد، أودُّ أن ألقي نظرةً على تاريخ المقاومة اللاعنفية في فلسطين. وإنّه لتاريخٌ طويل فعلاً، لذا سأذْكر فقط بعضَ المعالم الأساسية. إنّ واحدًا من أشهر المعالم اللاعنفية المبكّرة كان الإضرابَ الشهيرَ عامَ ١٩٣٦ في فلسطين ولمدة ستة أشهر، وقد دَشّنَ ثلاثةَ أعوام من المقاومة الفاعلة. كما أنّ الانتفاضة الأولى (عامَ ١٩٨٧) كانت، إلى حدٍّ كبير، مقاومةً لاعنفيةً، وأحدُ أشْهَر ما قامت به هو التمرّدُ على دفع الضرائب ورفضُ بطاقات الهوية في بيت ساحور. أما في الانتفاضة الحالية فأبرزُ الأعمال اللاعنفية تجري في قرًى على امتداد جدار الفصل. فبلدات جَيّوسْ، وبِدّو، وبيت عَوّا، وبُدْرُس، وبِلْعين شَهِدَتْ كلُّها أعمالَ مقاومةٍ منتظمةً ضدّ بناء الجدار ومصادرةِ الأراضي، وحَقّقتْ نجاحاتٍ لافتةً في حماية الأراضي وتغييرِ اتجاه الجدار وعرقلةِ نموّه. هذه الجهود يقوم بها المواطنون الأصليون (الفلسطينيون)، مع أنّ مجموعاتِ التضامن العالمية والإسرائيلية شاركت القرويين بشكلٍ ثابت. وكانت أكبرُ التظاهرات تلك التي جَرَتْ في بِلْعين قبيْلَ أسبوع من الانتخابات الفلسطينية في كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٦. فقد تلاقى الآلافُ من الفلسطينيين بالمئات من المتطوّعين العالميين والإسرائيليين في هذه القرية الصغيرة، وضِمْنَهم مرشّحون من كلّ الأحزاب الأساسية.

ما قيمة هذه الأعمال اللاعنفية؟ من الواضح أنّ الوضع العامَّ في فلسطين لم يتحسّن بفضلها، حتى لو كانت هناك نجاحاتٌ محدودة. بَيْدَ أنّ هذا الانتقادَ عينَه يُمْكن توجيهُه إلى المقاومة المسلّحة أيضًا.

أحيانًا يُساءُ تسميةُ المقاومة اللاعنفية بـ «المقاومة السلبية» (passive resistance) أو «السّلامية» (pacifism). إنّ المقاومة

اللاعنفية ليست هذه ولا تلك. إنّها، قبلَ كلِّ شيء، مقاومةٌ، وهي صِداميةٌ بالضرورة وظيفتُها تحدِّي علاقاتِ القوة الموجودة. وغالبًا ما يُنْسى أنّ غاندي ومارتن لوثر كينغ كانا مثيرَيْن للمتاعب، وإثارةُ المتاعب عنصرٌ أساسيّ للمقاومة اللاعنفية الناجحة. وهي، من هذه الناحية، ليست مختلفةً عن الكفاح المسلّح.

نقطة الاختلاف بين المقاومتَيْن هي أنّ المقاومة اللاعنفية تَسْعى إلى إثارة المتاعب من دون إلحاق الأذى (وهذا لا يَجْعلها بالضرورة أفضلَ من الكفاح المسلّح، بل مختلفة عنه فقط). إنّ مفتاحَ أيِّ بنيةِ سلطةٍ هو قدرةُ الممسكين بها على التحكّم بمَنْ لا يُمْسكونها، وإجبارُهم على إطاعةِ إرادتهم. وتَعْمل المقاومةُ اللاعنفيةُ من خلال الرفض المنهجي لقواعدِ مَنْ يعتقدون أنّهم ممسكون بزمام الأمور. إنّها تَسْلب الحكّامَ من سلطتهم عَبْرَ تحدِّي قوانينهم ومؤسساتهم.

ثمة سوءُ إدراكٍ شائع، مفادُه أنّ المقاومة اللاعنفية والكفاح المسلّح لا يُمْكن أن يتعايشا. وهذا، بكلِّ تأكيد، **غيرُ** صحيح. إنّهما، فقط، وسيلتان مختلفتان لتحقيق الهدفِ نفسِه. إنّ القانون الدولي يَضْمن شرعيةَ المقاومة المسلّحة للاحتلال، وإنّ القيودَ المفروضةَ على استخدام المقاومة المسلّحة هي نفسُها المفروضةُ ضدّ استخدام **أيّ** سلاح بموجب اتفاقيات جنيف، وضدّ استخدامه لانتهاكِ حقوقِ الإنسان بشكلٍ أساسيّ.

لأسباب واضحة جداً لا يُمْكن استخدامُ السلاح في العمل اللاعنفي. وفي المقابل سيكون استخدامُ تكتيكاتٍ لاعنفيةٍ في عملية عسكرية أمرًا بلا معنى. صحيحٌ أنّ مَنْ يمارسون المقاومةَ اللاعنفيةَ يختارون عادةً ألاّ يشاركوا في المقاومة المسلّحة، وذلك لأسباب استراتيجية أو مبدئية. إلاّ أنّ هذا الخيار لا يساوي **إنكارَ الحق** في المقاومة المسلّحة، وهو حقٌّ تحترمه حركتُنا بكلّ تأكيد. كما أنّه لا يوجد سببٌ يَمْنع دون أن تكون المقاومةُ المسلّحة والمقاومةُ اللاعنفية جزءًا من كفاحٍ واحد.

غير أنّنا لو أقْرَرْنا بأنّ هناك أشكالاً مختلفةً من المقاومة، فمن المهمّ أنْ نُقرّ بإيجابياتِ وسلبياتِ كلٍّ منها. فأما المقاومة المسلّحة فتعني في العادة مشاركةَ جزءٍ صغيرٍ نسبيّاً من السكّان في أعمالٍ تَحْظى إلى حدٍّ ما بعددٍ أكبر من الداعمين المباشرين وبجمهورٍ أوسعَ يمدُّها بالموارد. لكنّ هذه المقاومةَ تقدّم لأشخاصٍ قليلين جداً فرصةَ المشاركة في الأعمالِ المقاومة المباشرة.

أما المقاومة اللاعنفية فتعطي عددًا أكبر من الناس، بل الشعبَ بأكمله، فرصةَ المشاركة المباشرة في المقاومة. وهذا فعلٌ تعزيزيٌّ كبير، وعملٌ ديموقراطيٌّ وشعبيٌّ كبير يستحقّ بالتأكيد أن يكون جزءًا من أيِّ حركةِ مقاومة والأشكال الشائعة للمقاومة اللاعنفية هي الإضراباتُ، والمقاطعةُ، والتظاهرات ــ وهي كلُّها ممّا يُمْكن أيّاً كان أن يشارك فيه. فما ستكون فائدةُ حرمانِ مَنْ لا يشارك في الكفاح المسلّح فرصةَ المقاومة بأشكالٍ أخرى؟

بسبب الفوارق بين المقاومتَيْن المسلّحة واللاعنفية سيغدو واضحًا أنّ الشكلَ العمليَّ الوحيدَ المتاح لمشاركة حركات التضامن الدولية في حالة فلسطين هو المقاومة اللاعنفية. فالمشاركة في المقاومة المسلّحة صعبةٌ على الفلسطينيين أنفسهم، والأمرُ ببساطة أَصْعبُ بالنسبة إلى الأجانب بسبب سهولة تمييزهم من غيرهم. إنّ الخيارات التي كانت متاحةً أمام لافاييت وبايرون والفوضويين في إسبانيا لا يتوفّر معظمُها في هذا النضال طبعًا هناك كثيرون، فلسطينيون وأجانب، يشاركون في المقاومة اللاعنفية انطلاقًا من معارضةٍ مبدئيةٍ للعنف والجيّد في حركات المقاومة اللاعنفية هو أنّها تَمْنح هؤلاء فرصةَ القيام بذلك من دون المساومة على مبادئهم

❖ ❖ ❖

دعوني الآن أرجعْ إلى ما ذكرتُه سابقًا مِنْ أنّني آمَلُ مخْلصًا أن نشكّل خطرًا على وجود إسرائيل، لا على أمنها فإسرائيل تعرِّف نفسَها بأنّها دولةٌ يهودية، ونحن نعارض بلا أدنى لَبْس أيَّ دولةٍ تَمْنح امتيازًا لمجموعةٍ عرقيةٍ أو إثنيةٍ أو دينية. ولهذا نطْمح فعلاً إلى أن نكونَ خطرًا على مثل هذه الدولة. ولكنْ، من جهة أخرى، علينا أن نعتمد استراتيجيّاً على وسائل لاعنفيةٍ، كما أوضحتُ آنفًا.

. پـــــــــول لارُودِي .

المقاومة اللاعنفية والكفاح المسلّح وسيلتان مختلفتان لتحقيق الهدف نفسه.

ولهذا السبب فإنّنا لا نستطيع أن نكون خطرًا أمنيًا من أيّ نوعٍ كان. وعليه، فإذا كان الهدفُ الكاملُ للمقاومة المسلّحة هو تهديدَ أمنِ إسرائيل، فإنّ هذا ليس خيارًا **متاحًا** أمامَ عملنا نحن.

أما بخصوص مستقبل حركتنا، فإنّ بعض التحدّيات التي تواجهها هي احتمالُ المزيد من القمع الإسرائيلي، ومدى قدرتنا على تجنيد المتطوّعين، والمصاعب البنيوية داخل حركتنا، وتشرذم جهودنا، والتمويل طبعًا. وقد نَشرتْ **معاريف** العبرية أنّ إسرائيل ربما تخطِّط لإقصاء أيّ متطوّعين متعاطفين مع الفلسطينيين، بمن فيهم أولئك الذين لا يشكّلون أيّ همٍّ أمنيٍّ لإسرائيل. ثم إنّ عملية اتخاذِنا للقرارات، وهي عمليةٌ تستند إلى عملِ لجان، غالبًا ما تكون بطيئةً من حيث استجابتُها للحاجات ولقد اختار كثيرٌ من المجموعات الداعمة لنا سلوكَ طُرُقٍ مستقلّة عنّا، مع أنّها ما زالت منخرطةً في الجهد العامّ نفسه. وأخيرًا، فإنّ قدرتنا على تأمين الدعم المالي غيرُ مثيرةٍ للإعجاب!

هذه المشاكل لا تنحصر في «حركة التضامن العالمي» وحدها، ولكنّنا نواصل إيمانَنا بقدرتنا على تأدية دورٍ هامّ في حركة المقاومة الفلسطينية. ونتعهّدُ بأن نواصلَ ذلك حتى يعيشَ كلُّ سكانِ فلسطين بحرية، وتعودَ إليهم بالتمامِ والكمال كلُّ حقوقهم.

بيروت

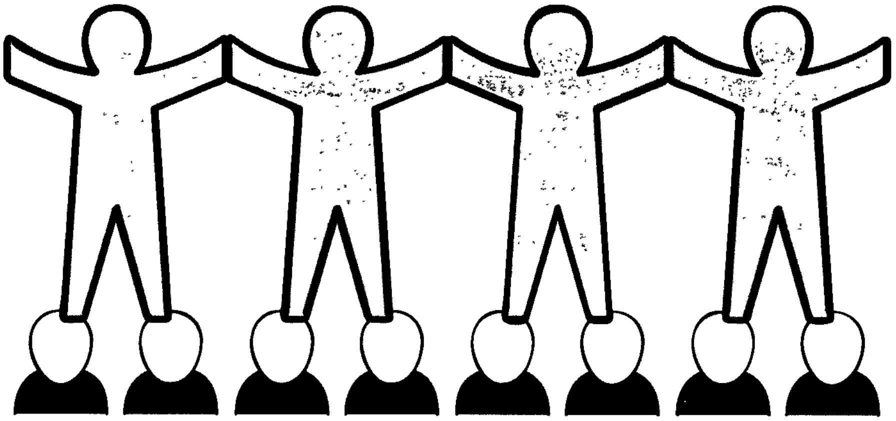

هذه ليست وحدةً

لارا بلعـــــة